

بحث النظرية البنوية من زاوية الحكمة المتعالية

د. حسن عبيدي [*]

المخلص

تعدّ النظرية البنوية^[٢] واحدة من النظريات الشائعة في العلوم الاجتماعية. وقد اتسعت هذه النظرية لاحقاً لتشمل علوماً، من قبيل: علم النفس، والعلوم التربوية والاقتصاد والإدارة أيضاً. واليوم بدأنا نشهد امتداد هذه النظرية إلى حقل العلوم الطبيعية أيضاً. وتعود هذه النظرية في جذورها الأولى إلى عالم اللسانيات السويسري الشهير فرديناند دي سوسير^[٣]. مع نفي المعاني المستقلة لجميع المفاهيم، يتمّ تحليل وتفسير الدوال والدلالات على أساس مفهوم الربط والنسبة. وبذلك فإن «الربط» و«النسبة» تحظى بالأصالة في هذه النظرية. إن السؤال الأصلي في هذه المقالة، عبارة عن: «ما هي الانتقادات الواردة على النظرية البنوية من زاوية الحكمة المتعالية؟». وقد تمّ بحث هذا السؤال في هذه المقالة في ضوء الاستفادة من الأسلوب التحليلي / العقلي. وعلى أساس معطيات التحقيق، تمّ إيراد الكثير من الإشكالات على النظرية البنوية، ومن بين أهمّ تلك الإشكالات، عبارة عن:

١ - نفي الموجود المستقل، على الرغم من الإقرار بالموجودات الرابطة.

٢ - نفي ذات وذاتيات الأشياء.

٣ - نفي اختيار الإنسان.

٤ - الشمولية الذاتية لهذه النظرية.

٥ - النزعة الاختزالية^[٤].

الكلمات المفتاحية: البنوية، المبنى، النشاط، المعنى الربطي، الوجود الرابط، الوجود المستقل، صدر المتألهين، دي سوسور، الحكمة المتعالية.

*- عضو اللجنة العلمية في جامعة باقر العلوم (عج).
- تعريب: حسن علي مطر.

[٢]- البنوية (Structuralism): منهج للبحث يُستخدم في عدّة تخصصات علمية تقوم على دراسة العلاقات المتبادلة بين العناصر المكوّنة لبني يمكن أن تكون عقلية مجردة ولغوية واجتماعية وثقافية. (المعرب).

[٣]- فرديناند دي سوسير (١٨٥٧ - ١٩١٣ م): عالم لغوي سويسري شهير. يعتبر بمثابة الأب للمدرسة البنوية في علم اللسانيات. اهتم بدراسة اللغات الهندية / الأوروبية، وقال بأن اللغة يجب أن تعتبر ظاهرة اجتماعية. من أشهر أعماله كتاب (بحث في الألسنة العامة). كتبه باللغة الفرنسية ونشر عام ١٩١٦ م بعد وفاته بأربعة أعوام تقريباً، وقد نقل إلى اللغة العربية بترجمات متعدّدة ومتباينة. (المعرب).

[٤]- الاختزالية (Reductionism): منهج لفهم طبيعة الأشياء المعقدة عن طريق اختزالها إلى تفاعلات من أجزائها، أو أشياء أكثر بساطة أو أشياء أكثر أساسية. أو أنها موقفاً فلسفياً، بمعنى أن أيّ نظام معقد ليس سوى مجموعة أجزاءه، وأنه يمكن اختزال أيّ جزء منه إلى أجزاء تتألف مقومات أساسية فردية. (المعرب).

المقدمة

تعود أهمية النظرية البنيوية إلى عدم التمكن من تجاوز دلالاتها التطبيقية في العلوم الاجتماعية بسهولة، وقد ذهب بعض الكتاب إلى اعتبار تأثير هذه النظرية على العلوم الإنسانية بمنزلة «الثورة الكوبرنيقية»^[١]. من خلال التدقيق في المباني النظرية والفلسفية لهذه النظرية يتضح أن هذه النظرية تتعارض مع أصول الحكمة المتعالية. ومن هنا فإن أي نوع من المواجهة الانتقادية مع نظريات العلوم الإنسانية، يدفعنا إلى اتخاذ رؤية انتقادية تجاه النظرية البنيوية. وقد عملنا في هذه المقالة أولاً - من خلال الاستفادة من أسلوب القراءة المكتبية - على جمع المعلومات الضرورية، ثم عمدنا بعد ذلك - من خلال تجزئة وتحليل المعلومات المذكورة وعلى أساس المنهج التحليلي / العقلي، ضمن استخراج المباني والفرضيات المسبقة في البنيوية - إلى نقدها وتقييمها من زاوية الحكمة المتعالية.

تقوم فرضية هذا التحقيق على أن أي نوع من الوجود الرابط - من وجهة نظر الحكمة المتعالية - لا يكون ممكناً من دون تحقق وجود مستقل. ومن هنا إذا كانت النظرية البنيوية لدي سوسير تدعي أن الربط بين الدال والمدلول اختياري، وليست هناك أي خصوصية لتبقي على المدلول ثابتاً، فلا يمكن القبول بها؛ وذلك لأن هذا الادعاء يستلزم رد النظرية الفطرية^[٢]. يضاف إلى ذلك أن الرؤية الاختزالية عاجزة عن تقديم وصف وبيان دقيق للظواهر.

واليوم هناك الكثير من المفكرين في الحقول المختلفة من العلوم الإنسانية يتبعون أسلوب البنيوية بوعي أو غير وعي منهم، وإن كان هناك بعض منهم من يعرف عن نفسه بوصفه من البنيويين. من ذلك - على سبيل المثال - أن بعض المختصين في اللسانيات، من أمثال: ليونارد بلومفيلد^[٣]، وإدوارد سايبير^[٤]، ونعوم تشومسكي^[٥]، وعلماء الصوتيات من أمثال: نيقولا سيبرغي

[١]- انظر: هومر، شون، ژاك لاكان (جاك لاكان)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد علي جعفري ومحمد إبراهيم طاهاني، ص ٥٧ - ٥٨، انتشارات فقتوس، طهران، ١٣٩٠ هـ ش.

[٢]- النظرية الفطرية أو الفطرية النفسية (Psychological nativism): رؤية تفيد بأن مهارات محددة وقدرات فطرية معينة يُجبل الدماغ البشري عليها منذ الولادة، وهي رؤية تتناقض مع التجريبية أو الصفحة البيضاء واللوح الفارغ، وتنصّ على انعدام المحتوى الفطري في الدماغ كالمعتقدات، واحتواء الدماغ على مجرد قدرات للتعلم من البيئة. (المعرب).

[٣]- ليونارد بلومفيلد (١٨٨٧ - ١٩٤٩ م): عالم لغوي أمريكي. أحد أهم الرائدین في مجال اللغويات البنيوية. قدّم إسهامات كبيرة في حقل اللغويات التاريخية للغات الهندوأوروبية. وقد تميّز منهجه اللغوي بالتركيز على الأسس العلمية للغويات والانطلاق من المذهب السلوكي في أعماله الأخيرة بالإضافة إلى الاهتمام بالإجراءات البنيوية في تحليل المعلومات اللغوية. إلا أن تأثير اللغويات التي أطلقها قد تراجع وانحسر بعد أن ظهرت نظريات القواعد التوليدية التي كان نعوم تشومسكي من أوائل واضعيها. (المعرب).

[٤]- إدوارد سايبير (١٨٨٤ - ١٩٣٩ م): عالم إنسانيات ولغوي أمريكي. أحد أهم الشخصيات في التطور المبكر لعلم اللغويات. (المعرب). [٥]- أفرام نعوم تشومسكي (١٩٢٨ - ؟ م): فيلسوف وعالم لسانيات أمريكي معاصر، بالإضافة إلى كونه عالم إدراكي وعالم بالمنطق ومؤرخ وناقد وناشط ومنظر سياسي. كتب عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام، وألف أكثر من ١٠٠ كتاب. وتم التصويت له بوصفه أبرز مثقفي العالم في استطلاع الرأي عام ٢٠٠٥ م. (المعرب).

تروبتسكوي^[١]، وفي الأثروبولوجيا: كلود ليو شتراوس^[٢]، يعتبرون أنفسهم من البنويين^[٣]. وعلاوة على هؤلاء، يمكن لنا الإشارة في حقل علم النفس إلى جان بياجيه^[٤]، وجاك لاكان^[٥]، وفي علم الاجتماع إلى ميشيل فوكو^[٦]، ولوي ألتوسير^[٧]، وفي النقد الأدبي إلى رولان بارت^[٨]، حيث تأثروا في كتاباتهم بمناهج البنوية، وإن انخرطوا في نهاية المطاف في زمرة ما بعد البنويين. ومن هنا يبدو أن الفهم العميق للكثير من نظريات العلوم الإنسانية، غير ممكن من دون فهم البنوية. ومن هنا سوف نعمل فيما يلي على بحث ودراسة ماهية النظرية البنوية وخصائصها واتجاهاتها.

١- المفهوم

سوف نعمل في هذا الموضوع أولاً على بيان مفهوم البنوية، ثم نتقل بعد ذلك إلى توضيح خصائصها، وفي الختام نقدّم تعريفاً إجمالياً عن البنوية.

أ- مفهوم البنوية

إن كلمة «البنوية» تأتي كترجمة مرادفة لكلمة «structure» الإنجليزية، التي هي بدورها مشتقة من اللفظ اللاتيني «structura». وإن كلمة «structura» مشتقة من الفعل «struere» بمعنى «البناء». وكانت هذه الكلمة حتى القرن السابع عشر للميلاد تستعمل في أبحاث الهندسة المعمارية بمعنى الهيكل والإطار العام، ثم أخذت تستعمل في مباحث علم الأحياء بمعنى أجزاء بنية الجسم.

[١]- نيقولاي سيرغي تروبتسكوي (١٨٩٠ - ١٩٣٨ م): عالم لغويات روسي ومتخصص في اللسانيات. أحد مؤسسي حلقة براغ اللغوية. (المعرب).

[٢]- ليو شتراوس (١٨٩٩ - ١٩٧٣ م): فيلسوف أمريكي يهودي من أصل ألماني. يعدّه البعض الملهم لأيدولوجيا المحافظين الجدد التي تسود الحزب الجمهوري الأمريكي. (المعرب).

[٣]- انظر: أحمددي، بابك، ساختار وهرمونتيك (البنية والهرمنوطيقا)، ص ١٣، نشر گام نو، طهران، ١٣٨٩ هـ ش. (مصدر فارسي).

[٤]- جان بياجيه (١٨٩٦ - ١٩٨٠ م): عالم نفس وفيلسوف سويسري. عمل على تطوير نظرية التطور المعرفي عند الأطفال فيما يعرف الآن بعلم المعرفة الوراثية. أنشأ مركز نظرية المعرفة الوراثية في جنيف وترأسه حتى وفاته. يعتبر بياجيه رائد المدرسة البنائية في علم النفس. (المعرب).

[٥]- جاك لاكان (١٩٠١ - ١٩٨١ م): محلل نفسي فرنسي. اشتهر بقراءته التفسيرية لسيغموند فرويد ومساهمته في التعريف النفسي الفرويدي، وبالتغيير العميق الذي أحدثه في مفاهيم التحليل النفسي ومناهجه. (المعرب).

[٦]- ميشال فوكو (١٩٢٦ - ١٩٨٤ م): فيلسوف فرنسي. يعتبر من أهم فلاسفة النصف الأخير من القرن العشرين. تأثر بالبنويين ودرس وحلل تاريخ الجنون في كتابه (تاريخ الجنون). ابتكر مصطلح (أركيولوجية المعرفة). (المعرب).

[٧]- لوي ألتوسير (١٩١٨ - ١٩٩٠ م): فيلسوف ماركسي فرنسي. يعتبر أحد المنظرين الماركسيين في القرن العشرين. جادل في أطروحته التهديدات التي تواجه الأسس النظرية الماركسية، ومن بينها تأثيرات الإمبيقية على النظرية الماركسية، والتوجهات الاشتراكية الإنسانية والإصلاحية التي بانّت في انحرافات الأحزاب الشيوعية الأوروبية، بالإضافة إلى مشكلة عبادة الشخصية وعبادة الأيدولوجيا نفسها. (المعرب).

[٨]- رولان بارت (١٩١٥ - ١٩٨٠ م): فيلسوف وناقد أدبي دلالي ومنظر اجتماعي فرنسي. (المعرب).

وفي القرن التاسع عشر للميلاد قام هربرت سبنسر^[١] بنقل هذه الكلمة من علم الأحياء إلى حقل العلوم الاجتماعية. لقد تمّ استعمال هذه الكلمة في علم اللغة بمعنى «توالي الوحدات اللغوية في علاقة خاصة مع بعضها». ويعمد فرديناند دي سوسير إلى الاستفادة من كلمة «نظام» في الإشارة إلى هذا المفهوم، في حين سبق لليون شتراوس أن استعمل كلمة «البنية» للدلالة على هذا المعنى. وعلى كل حال فإن المراد من «البنوية» التي ورد استعمالها في عنوان هذه المقالة، عبارة عن: «هيئة اجتماعية مؤلفة من عناصر وأجزاء مختلفة، وهي وإن لم تكن مرئية، إلا أنها تؤلف الجوهر الأصلي للشيء، وتعمل على توجيه وظيفته ونشاطه»^[٢].

ب - خصائص البنيوية

نذكر فيما يلي بعض الخصائص الرئيسة في البنيوية، وهي عبارة عن:

أ - الخصيصة الأولى عبارة عن الخفاء واللا رؤية وعدم إمكان المشاهدة. يرى فرديناند دي سوسير أن هذه المنظومة [اللغة] بنية وآلية معقدة، بحيث لا يمكن إدراكها إلا من طريق التفكير، وإن الذين يستعملون هذه المنظومة باستمرار وبشكل يومي، لا يطلعون عليها ولا يكون لهم خبراً بها^[٣]. إن البنيوي يؤكد على أن بنية الحقل المعرفي، يُعدّ بعداً غير مرئياً من ذلك الحقل، وليس الأمر بحيث يمكن الحصول على البنية من خلال المشاهدة^[٤].

ب - الخصيصة الثانية، عدم التاريخية. إن نقطة عزيمة دي سوسير في بيان نظرية البنيوية تكمن في التمايز بين اتجاهين في الدراسات اللغوية، حيث يُعرف أحد هذين الاتجاهين بـ «في الزمان»، ويُعرف الاتجاه الآخر بـ «التزامن». إنه من خلال تأكيده على ضرورة الاستفادة من الاتجاه التزامني، إنما أكد في الواقع على خصيصة لاتاريخية البنيوية. ومن هنا فإن البنية تفتقر إلى خصيصة التاريخية، وفي كل حقل معرفي تكون بنية كل مرحلة مستقلة ومنفصلة عن

[١] - هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣ م): فيلسوف بريطاني. قدّم رؤية فلسفية متطرفة في ليبراليتها. وكان هو من أوجد مصطلح (البقاء للأصلح) رغم أنه يُنسب عادة إلى (دارون). وقد ساهم في ترسيخ مفهوم الارتقاء، وأعطى له أبعاداً اجتماعية فيما عُرف لاحقاً بالداروينية الاجتماعية. وهكذا يُعدّ سبنسر واحداً من مؤسسي علم الاجتماع الحديث، واعتبر الأب الثاني لعلم الاجتماع بعد أوجست كونت الفرنسي. (المعرب).

[٢] - انظر: خاتمي، محمود، مدخل فلسفه غربي معاصر (مدخل إلى الفلسفة الغربية المعاصرة)، ص ٥٢٧ - ٥٢٨، انتشارات علمي، طهران، ١٣٨٦ هـ ش. (مصدر فارسي).

[٣] - انظر: فرديناند دو سوسير، ؟، ص ٧٣، ١٩٦٦ م.

[٤] انظر: ريتزر، جورج، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر (نظرية علم الاجتماع في المرحلة المعاصرة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، ص ٥٤٥، انتشارات علمي، طهران، ١٣٧٧ هـ ش.

بنية سائر المراحل، ويجب أن تدرس على هذا الأساس^[١].

ج - إن الخصيصة الثالثة التي يمكن ذكرها للنبوية، هي النزعة الكلية أو ذات الخصيصة الغشتالية^[٢]. وإن المراد من الغشتالية هو أن البنية تتكون من الارتباط بين عدة أجزاء تؤلف كلاً واحداً ومجموعة مترابطة.

د - الخصيصة الأخرى التي يمكن ذكرها للنبوية، هي خصيصة «البقاء الذاتي». وإن المراد من هذه الخصيصة هو أن كل بنية قادرة على الحفاظ على وجودها في مختلف الحالات والشروط. وبعبارة أخرى: إن البنية تعمل على ترميم ذاتها، بمعنى أن أجزائها تتعرض للتغيير والتحول، أو يتم استبدالها بعناصر جديدة، ولكنها تحافظ على بنية نظامها وانسجامها.

هـ - إن الخصيصة الخامسة في النبوية، هي الأصالة. إن الأصالة تعني أنه في ثنائية الجزء والكل يقع الدور الأساسي والحاسم على عاتق الكل والبنية، وليس على أجزائه. ومن ناحية أخرى في حالة الدوران بين أصالة الإنسان وأصالة النبوية، يقوم النبويون بإعطاء الأصالة إلى النبوية.

و - الخصيصة السادسة للنبوية، هي عدم التحول الخارجي. إن البنية لا تتعرض للتحويلات الخارجية، وفيما لو تعرضت لتحويلات خارجية، فإنها سوف تتحول إلى بنية جديدة^[٣].

ج - النبوية

هناك الكثير من الكتاب في الحقول المختلفة من العلوم الإنسانية الذين يقعون اليوم - بوعي أو غير وعي منهم - تحت تأثير النظرية النبوية. وفي بيان واضح يمكن تعريف النبوية بـ «البحث عن القوانين البشرية الكلية وغير القابلة للتغيير بأسلوب وأداء شامل لجميع سطوح الحياة؛ من السطوح الابتدائية وصولاً إلى أكثرها تطوراً»^[٤]. إن النبوية تعتبر جميع محاصيل الإنسان، بما في ذلك «أفكاره الكلية» بنية لغوية^[٥].

[١]- انظر: كرايب، يان، نظريه اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، مؤسسة انتشارات آگه، طهران، ١٣٨٩ هـ ش.

[٢]- الغشتلت (gestalt): دراسة الإدراك والسلوك في مدرسة علم النفس، والمعروف أيضاً باسم (علم النفس الشكلي)، الذي يُعني في المقام الأول بدراسة التصور وقوانينه. وفقاً لعلماء النفس فإن الغشتلت يعني (التكوين)، بمعنى أن الصور تدرك بطريقة إجمالية وأكثر تعقيداً من مجموع التشكيلات الجزئية. (المعرب).

[٣]- انظر: ريتزر، جورج، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر (نظرية علم الاجتماع في المرحلة المعاصرة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، ص ٥٤٧، ١٣٧٧ هـ ش.

[٤]- انظر: ريتزر، جورج، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر (نظرية علم الاجتماع في المرحلة المعاصرة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، ص ٥٤٣، ١٣٧٧ هـ ش.

[٥]- انظر: كرايب، يان، نظريه اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ١٦٧، ١٣٨٩ هـ ش.

٢- مباني البنيوية

إن البنيوية في ضوء التعريف المتقدم، يقوم على بعض الأصول والمباني. ومن خلال بحث هذه النظرية يمكن لنا أن نستخرج المباني أدناه:

أ - العالم بوصفه نتاجاً للأفكار؛ إن العالم الذي نراه من حولنا ليس سوى حصيلة أفكارنا، إن هذه الرؤية الكانطية واحدة من الفرضيات الأصلية للنظرية البنيوية. إن أتباع هذه النظرية يذهبون إلى الادعاء والقول: إننا نتج العالم الذي نراه. لقد ذهب ليو شتراوس - من خلال القول بأن البنيوية قد اكتشفت نسيج الأنظمة المتقاربة في المجتمع القبلي - إلى الادعاء بأن اكتشاف البنيوية عبارة عن نسيج من المصطلحات المتقاربة أو الأفكار التي تحدثت فيها هذه المجتمعات عن صلة القرابة من خلال الاستفادة منها^[١]. للوصول إلى النظرية الصحيحة لا يجب علينا سوى أن ندرك كيفية العمل على إيجادها^[٢]. ومن هنا يتم نفي النزعة التجريبية في هذه النظرية بشدة.

ب - العالم بوصفه رؤية منطقية؛ إن أساس رؤية البنيويين يقوم على هذا المطلب، وهو أنه في تحليل وبحث كل موضوع يجب التأكيد على بنية مجموعة من المعاني الكلية. إن الأفكار التي ينتجها الذهن تحتوي بدورها على بنية شبيهة بالعالم^[٣]. وبعبارة أخرى: إن البنيويين من أجل معرفة أي مسألة من المسائل بدلاً من أن يبدأوا من المشاهدة لكي يصلوا إلى الأحكام الكلية، فإنهم يبدأون من التأملات الذهنية، ويصلون إلى الأبنية الحاكمة على الموضوع.

ج - موت الموضوع؛ بعد بيان وانتشار البنيوية، لا يعود هناك متسع للموضوع بوصفه فاعلاً معرفياً؛ وذلك لأن كل نوع من أنواع الفعل سواء أكان معرفياً أو غير معرفي ينشأ من البنية. يمكن التعبير عن هذه الظاهرة بـ «موت الموضوع». ربما لم يتم بيان هذا المبنى النظري في أي نصّ بالوضوح المذكور في نص ليو شتراوس. يرى شتراوس أن اعتبار الفاعل المعرفي هو النواة المركزية، ليس صحيحاً.

٣- خصائص البنيوية

قلنا إن البنيوية عبارة عن: البحث عن القوانين البشرية الكلية وغير القابلة للتغيير بأسلوب وأداء شامل لجميع سطوح الحياة؛ من السطوح الابتدائية وصولاً إلى أكثرها تطوراً. وقد ذكروا بعض

[١]- انظر: كرايب، يان، نظريته الاجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ١٦٨ - ١٦٩، ١٣٨٩ هـ ش.

[٢]- انظر: المصدر أعلاه، ص ١٦٩، ١٣٨٩ هـ ش.

[٣]- انظر: المصدر أعلاه.

الخصائص لهذا التفسير وهذا الفهم للبنوية، وهي عبارة عن:

أ - نفي الذات واختزال الأشياء إلى نسب وروابط^[١]؛ هناك في كل حقل معرفي نسب حاکمة إذا لوحظت منضمة إلى بعضها، فسوف نحصل على نظام معرفي قوامه العناصر المؤلفة له. تعود جذور هذه المسألة إلى كلام فيرديناند دي سوسير؛ إذ يقول: في إطار اللغة الواحدة تعمل جميع المفردات ذات المفاهيم القريبة من بعضها، في المقابل على تحديد بعضها؛ إن الصور المترادفة ... إنما تحظى بالقيمة من طريق تقابلها مع بعضها^[٢]، ويتم تعيين معنى كل مفردة من طريق ما يُحيط بها^[٣]، ولا يمكن لأي جزء من أجزاء اللغة أن يتعين في نهاية المطاف إلا بسبب اختلافه عن سائر وحدات اللغة^[٤]، وإن النظام اللغوي عبارة عن سلسلة من الاختلافات الصوتية المرتبطة بسلسلة من الاختلافات المفهومية^[٥].

ب - اختزال النسبة بالدلائل والإشارات؛ بالنظر إلى أن البنية أمر غير مرئي ولا يمكن أن يُشاهد، فإنه لا يمكن التعرف عليه إلا من خلال اللجوء إلى الدلالات. ولكي نفهم البنية في كل حقل معرفي يجب التركيز على الدلالات، واكتشاف ذلك الحقل من خلالها. وبعبارة أخرى: إن اكتشاف البنية رهن بمعرفة الدلالة.

ج - نفي الرؤية التاريخية؛ إن أعمال ليو شتراوس نموذج بارز عن نفي الرؤية التاريخية. وقد تعرض في كتابه (الذهن المتوحش) إلى نقد نظرية جان بول سارتر^[٦] حول المادية التاريخية، وأورد بعض الانتقادات على رأيه القائل بأن المجتمع المعاصر أفضل من الثقافات المتقدمة.

د - نفي الرؤية التجريبية في العلوم؛ يؤكد التجريبيون على عنصر المشاهدة في أسلوب العلم، ولا يرون تمايزاً بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، ويقولون بأن الأسلوب في كلا العلمين

[1]- relations.

[٢]- انظر: فيرديناند دو سوسير، ؟، ص ١١٦، ١٩٦٦ م.

[٣]- انظر: المصدر أعلاه، ص ١١٧.

[٤]- انظر: المصدر أعلاه، ص ١١٨.

[٥]- انظر: المصدر أعلاه، ص ١٢٠.

[٦]- جان بول شارل إيمارد سارتر (١٩٠٥ - ١٩٨٠ م): فيلسوف وروائي وناقد أدبي وناشط سياسي فرنسي. اشتهر سارتر بكونه كاتباً غزير الإنتاج وأعماله الأدبية وفلسفته المسماة بالوجودية، وانتمائه السياسي إلى اليسار المتطرف. من أعماله: (الوجود والعدم)، و(الوجودية مذهب إنساني)، و(نقد العقل الجدلي)، وله مجموعة من الروايات، ومن بينها: (الغثيان) و(الحائط)، ومن بين مسرحياته: (الذباب) و(العاهرة الفاضلة) و(الغرفة المغلقة). كان سارتر يرفض التكريم مكتفياً بلقب الدكتور، وإخلاقاً لهذا المبدأ رفض استلام جائزة نوبل للآداب. (المعرب).

واحد^[١]. وفي المقابل يذهب البنيويون - من خلال التأكيد على حاكمية بنية الذهن على النشاطات البشرية - إلى إنكار كون الذهن لوحة بيضاء، ويقولون بوجود تمايز واضح بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية^[٢].

هـ - نفي المفهوم؛ إن نفي استقلالية المفهوم والمعنى، قد مهد الأرضية للبنيويين ليواجهوا مفهوم النزعة الذرية في المرحلة المعاصرة، وكذلك الاتجاه المنسوب إلى لودفيغ فيتغنشتاين^[٣] في تعريف المعنى بوصفه مجرد إشارة إلى الموضوع مورد التعريف أيضاً^[٤]. وعلاوة على ذلك يمكن الحديث - من باب الإشكال - عن وجود سطوح مختلفة للمعنى، حيث لا يمكن تشخيص سطوح المعنى^[٥].

و - نفي الرؤية الوجودية؛ على الرغم من حاكمية الوجودية والبنيوية في مرحلة تاريخية في الفضاء الفرنسي، بيد أن البنيويين قد أوردوا بعض الانتقادات على الوجودية، ومن بينها:

١ - في الوقت الذي يذهب الوجوديون إلى التركيز على الفاعل الفردي، يذهب البنيويون إلى إقرار أبنية ليس لها اسم ولا علامة بدلاً من الفاعل المعرفي.

٢ - إن الوجوديين ينظرون إلى الفاعل بوصفه كائناً مختاراً، وأما البنيويون فينظرون إلى ذات الفعل والبنية التي نشأ عنها الفعل.

٣ - في الوقت الذي يذهب الوجوديون إلى التأكيد على الإدراك الذاتي وحرية الفاعل، يذهب البنيويون إلى اعتبار الأبنية العميقة واللاواعية هي التي تعمل على تحديد مسار العمل.

٤ - يذهب الوجوديون إلى القول بأن الإنسان كائن يحتوي على خاصية «الإلقائية»^[٦] في التاريخ،

[١]- انظر: تشالمرز، ألان فرانسيس، جيستي علم (ماهية العلم)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: سعيد زيبا كلام، ص ٣٤، انتشارات سمت، طهران، ١٣٨١ هـ ش.

[٢]- انظر: استيور، دان، فلسفه زبان ديني (فلسفة اللغة الدينية)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أبو الفضل ساجدي، ص ٢٩٠، انتشارات مركز مطالعات و تحقيقات اديان و مذاهب، قم، ١٣٨٤ هـ ش.

[٣]- لودفيغ يوسف يوحنا فيتغنشتاين (١٨٨٩ - ١٩٥١ م): فيلسوف نمساوي وأحد أكبر فلاسفة القرن العشرين. كان لأفكاره أثرها الكبير على كل من (الوضعية المنطقية) و(فلسفة التحليل). أحدثت كتاباته ثورة في فلسفة ما بعد الحربين العالميتين. إن اللغة عند فيتغنشتاين هي الطريق إلى المعرفة باعتبارها وسيلة لفهم تكوين المعنى في الخطاب. (المعرب).

[٤]- انظر: استيور، دان، فلسفه زبان ديني (فلسفة اللغة الدينية)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أبو الفضل ساجدي، ص ٢٩٠، ١٣٨٤ هـ ش.

[٥]- انظر: بلومفيلد، ليونارد، زبان (اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي محمد حق شناس، ص ١٧٥، مركز نشر دانشگاہي، طهران، ١٣٧٩ هـ ش.

[٦]- الإلقائية (thrownness): مفهوم قدمه الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر لوصف الوجود الفردي للبشر بأنه «يتم إلقاءه» في العالم. (المعرب).

في حين يذهب البنيويون بشكل قاطع إلى إنكار أي نوع من أنواع الرؤية التاريخية إلى الإنسان.
٥ - في الوقت الذي يذهب الوجوديون إلى التأكيد على الماهية الأنفسية والمعرفة الإنسانية المنفصلة، يسعى البنيويون إلى بحث ودراسة المباني العلمية العينية^[١].

٤- الاتجاهات في البنوية

هناك الكثير من الاختلافات بين الحقول المتنوعة للبنوية^[٢]، ويمكن التمييز بين اتجاهين رئيسيين في البنوية، وهما:

أ - البنوية بوصفها نظرية

بعد أن اجتازت نظرية البنوية حدود اللسانيات، دخلت في دائرة علوم أخرى من قبيل: الأدبيات، والأنثروبولوجيا، وعلم النفس، والنقد الأدبي، وعلم الاجتماع، وحتى الفلسفة. عندما تقع البنوية في صلب الاهتمام بوصفها نظرية، سوف يمكنها الإشارة إلى نظريات مختلفة في مختلف أبعاد العلوم الإنسانية، ابتداءً من علم اللغة واللسانيات - الذي سبق لنا أن تحدثنا عنه في سياق بنوية دي سوسير بالتفصيل - وصولاً إلى نظرية في التحليل النفسي والنقد الأدبي. وقد واصل بعض المفكرين - من أمثال ليونارد بلومفيلد - متابعة هذه النظرية. وقد تمكن على هذا الأساس من القيام بدراسة دقيقة وعميقة حول أسرة اللغات الألغونكية - وهي لغة محلية في أمريكا الشمالية - وتوصل إلى نتائج كانت تعدّ قبل ذلك عديمة القيمة. وقد كان تأثيره على الأجيال اللاحقة من اللغويين وعلماء اللسانيات ملحوظاً بحيث لا يمكن إنكاره^[٣]. هناك بنوية بوصفها نظرية حول الأبنية الاجتماعية مستقلة عن معرفتنا، وبعبارة أخرى: لها وجود خارج أفعالنا وسلوكياتنا^[٤]. في هذه الرؤية تكون لأفكارنا وأسلوب تفكيرنا بنية ونسيج، بحيث يعمل في الواقع على تحديد وتعيين كل شيء نفكر فيه^[٥]. إن الأمور الاجتماعية وبشكل عام موضوعات العلوم الإنسانية، لا ينبغي اعتبارها - من وجهة نظر البنيويين - من قبيل الظواهر الفيزيائية وموضوعات العلوم الطبيعية، بل ينبغي البحث في باب

[١]- انظر: استيور، دان، فلسفه زبان ديني (فلسفة اللغة الدينية)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أبو الفضل ساجدي، ص ١٩١، ١٣٨٤ هـ ش.

[٢]- انظر: ريتزر، جورج، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر (نظرية علم الاجتماع في المرحلة المعاصرة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، ص ١٠٣، ١٣٧٧ هـ ش.

[٣]- انظر: ترسل، روبرت لارنس، مباني زبان (أسس اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي فاميان، ص ٣٦ - ٣٨، نشر مركز، طهران، ١٣٧٩ هـ ش.

[٤]- انظر: كرايب، يان، نظريه اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ١٦٣، ١٣٨٩ هـ ش.

[٥]- انظر: المصدر أعلاه.

دلالاتها. إن الأسلوب الذي يمكنه أن يساعد على دراسة هذا النوع من الموضوعات، ليس هو الأسلوب العليّ، بل يجب بحث كل ظاهرة من زاوية بنيتها وعلاقاتها الداخلية. لو أخذنا بنية ونظاماً عاماً بنظر الاعتبار، فسوف تتشكّل بفعل وجود العلاقات بين الأجزاء والأبنية الجزئية أنظمة مفهومية مختلفة. إن البنيويين في دراستهم لظاهرة ما، يعملون في الوهلة الأولى على بحث الاختلافات الداخلية والصورية بين مختلف أنواع تلك الظاهرة التي تؤدي إلى إيجاد المعاني الثقافية المختلفة، وفي الوهلة الثانية يبحثون الأبنية والأنظمة المرتبطة بوظائفها ومهامها^[١].

من ذلك - على سبيل المثال - أن من بين النظريات البنيوية نظرية رولان بارت في النقد الأدبي. فبحسب مدّعه كما يضع علم أنشتاين نسبية الدلالات في كل موضوع مورداً للدراسة الإجبارية، فإن العمل الجمعي للماركسية والفرويدية والبنيوية في الأدب، ترى قهرية نسبية العلاقات والروابط بين الكاتب والقارئ والمنعقد. فمن طريق الدلالة يمكن الاقتراب من النص وتجربته. إنه في بحث بنية الأساطير الجديدة (مفاهيم الدلالة) يستعمل الدال والمدلول، ولكنه يقيم فرضيته على هذا الأمر وهو أن الدال ليس مجرد ناظر إلى التفكير فقط، وفي المقابل يشير إلى شيء واقعي وحقيقي. ويمكن في الجدول أدناه مشاهدة تأثيرات البنيوية بوصفها نظرية في مختلف مدارس العلوم الإنسانية على نحو الإجمال.

ب - البنيوية بما هي أسلوب

عندما يرد الحديث عن البنيوية بوصفها أسلوباً، يكون المراد أن هذا الرأي يمكن له أن يكون دليلاً مناسباً لتحليل المعاني الكلية. وبعبارة أخرى: إنها تظهر طريقة الإجابة عن الأسئلة^[٢].

٥ - تقييم البنيوية

إن السؤال الأصلي لهذه المقالة، عبارة عن: «ما هي الانتقادات الواردة من وجهة نظر الحكمة الصدرائية على الدلالات البنيوية في العلوم الاجتماعية؟». والآن يأتي الدور على تقييم البنيوية.

أ - النقاط الإيجابية لنظرية البنيوية

على الرغم من الإشكالات الوارد على البنيوية - والتي سنأتي على بيانها لاحقاً - يمكن العثور في هذه النظرية على بعض النقاط الإيجابية أيضاً. ومن بين الأبعاد الإيجابية للنظرية البنيوية - على

[١] - انظر: خاتمي، محمود، مدخل فلسفه غربي معاصر (مدخل إلى الفلسفة الغربية المعاصرة)، ص ٥٢٩، ١٣٨٦ هـ ش.

[٢] - انظر: كرايب، يان، نظريه اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ١٧١، ١٣٨٩ هـ ش.

سبيل المثال - الالتفات إلى عنصر العلاقة والنسبة في تحليل الظواهر. وذات هذه العلاقة والنسبة قد وقعت مورداً للاهتمام في قالب آخر وبوصف «الوجود الرابط» في حكمة صدر المتألهين، الأمر الذي وفر الأرضية لاختلافها وتمييزها من سائر المدارس الفلسفية الأخرى. وعلى أساس هذا النوع من التحليل يذهب صدر المتألهين إلى اعتبار قوى النفس عين الربط والنسبة مع ذات النفس^[١].

إن من النقاط الإيجابية الأخرى لهذه النظرية، الاهتمام ببعد «الكل»، وتحليل الأجزاء في مجموعة من الأجزاء المترابطة. في ضوء هذه النظرية يمكن أن نأخذ في دراسة الظواهر بنظر الاعتبار نوعاً من الوحدة الحاكمة على عدد منها. ونظير هذه الرؤية قد حظيت بالاهتمام في حكمة صدر المتألهين أيضاً، حيث ذهب صدر المتألهين إلى اعتبار النفس بمنزلة الكل، إذ تقع القوى المختلفة ضمن ارتباطها ببعضها تحت سيطرة النفس. وعلى كل حال لا بد من الإشارة إلى نقاط ضعف هذه النظرية أيضاً. ومن هنا سوف نعمل فيما يلي في البداية على بيان الإشكالات المبنائية للبنوية، ثم نعمل بعد ذلك على ملاحظة الإشكالات البنائية.

ب - نقاط ضعف النظرية البنوية

إن كل نظرية أو أسلوب إنما يكتب لها التبلور على هامش المباني والآراء الفلسفية الخاصة^[٢]. ومن هنا فإننا من خلال التأمل والتدقيق في المباني النظرية للبنوية، نواجه بعض نقاط الضعف والنقص في المباني.

أ - تجاهل الواقعية العينية؛ إن من بين أنواع النقص والضعف في البنوية - سواء في إطار النظرية أو في إطار الأسلوب - أنها تتجاهل الواقعية العينية. فبعد أن يتم اختزال المعنى - بوصفه معبراً عن واقعية عينية - إلى أمر نسبي وربطي، ويتم بيان حقيقة المعنى في ضوء الدلالات، عندها بدلاً من اعتبار الواقعية العينية هي الملاك والمعيار في تقييم المفاهيم والدلالات، يتم منح الأصالة إلى الدلالات، وحيث تكون الدلالة - بدورها - أمراً اجتماعياً، فإنها سوف تنتهي إلى هذه المسألة، وهي أن الاعتبارات والعقود الاجتماعية سوف تكون هي التي تعين الحقيقة والدلالات، وبالتالي سوف تكون هي التي تعين حقيقة المعاني، وعلى حدّ تعبير دي سوسير: «بدلاً من أن يتم اعتبار كلام

[١]- انظر: صدر المتألهين، محمد بن إبراهيم الشيرازي، ؟، ج ٩، ص ٥٩، ١٩٨١ م.

[٢]- انظر: پارسانيا، حميد، روش شناسي انتقادي حكمت صدرائي (المنهج النقدي لحكمة صدر المتألهين)، ص ١٤٢، نشر كتاب فردا، قم، ١٣٨٩ هـ.ش.

الإنسان فرعاً عن فهمه للواقعية، يصبح فهم الإنسان للواقعية هو الذي يقوم على أساس الاستعمال الاجتماعي للدلالات الكلامية^[١].

في حين أن أي نوع من أنواع إنكار الواقعية العينية - على نحو مباشر أو غير مباشر - سوف يؤدي - في ضوء المباني الوجودية والأنطولوجية لصدر المتألهين - إلى المثالية وإنكار الحقيقة الخارجية، ولن يكون العلم برمته شيئاً غير الصور الذهنية الفاقدة للمحكي والمطابق العيني. ومن هنا فإن نموذج اللسانيات يرفض بعض الأصول والمباني الفكرية، من قبيل: إن الكلمات إنما تشير إلى الأشياء الموجودة في العالم، وإن الكلمات تعكس أفكارنا الداخلية، وإن هناك بين الكلمات والأفكار التي تحكي عنها الكلمات صلة وارتباطاً ثابتاً. وباختصار فإن رؤية دي سوسير تقع في قبال «الماهوية»^[٢] القائلة بأن كل شيء يتوفر على ماهية وذات، والتي هي بالإضافة إلى كونها مقومة لها، تعمل على تمييزها من سائر الأشياء الأخرى. إن الماهية وهوية وذات الشيء أمر نفساني وغير نسبي. إن الروابط والنسب الحاكمة على شيء تُعدّ بوصفها أموراً ذاتية و«عرضية» قد تتعرض للتغيير والتحوّل، في حين أنه في ضوء رؤية فرديناند دي سوسير يتم نفي الماهوية، وتصبح هوية كل شيء عبارة عن مجموعة من الروابط الموجودة ضمن منظومة مفهومية. إن هذه المسألة ليست شيئاً يمكن أن يبقى غائباً عن رؤية بنيوي دقيق وثاقب النظرة مثل ليو شتراوس. يقول شتراوس صراحة: «إن النماذج أكثر واقعية من ذلك الشيء الذي تمثله وتعبّر عنه»^[٣]. في حين علينا أن نعلم أن الاعتقاد بأي نوع من أنواع النسبة الرابطة لا يمكن إلا من خلال الاعتقاد بالوجود المستقل، وكأن فرديناند دو سوسير - الذي أقرّ بهذه المسألة لا شعورياً - لم يجد بُدّاً من القبول بأصل وجود الماهية للأشياء. وقد صرّح في ذلك قائلاً: يجب العمل في كل مورد على تحديد مسألة الماهية، ومن أجل حلها لا بد من اتباع هذه القاعدة، وهي: إن كل ما يعمل على تغيير النظام بأي شكل من الأشكال، يجب أن يكون من الداخل^[٤].

ب - إنكار الوجود المستقل؛ إن الإشكال الآخر الذي يرد على المباني النظرية للبنوية. في هذا الرأي يتم اختزال جميع المعاني بأمور ربطية وتابعة، ولن يتحقق أي أمر مستقل أبداً، في

[١] - انظر: فرديناند دو سوسير، ؟، ص ١١٦، ١٩٦٦ م.
 [٢] - الماهوية (essentialism): الجوهرية؛ نظرية تقدّم الماهية أو الجوهر على الوجود (فتكون بذلك نقيضاً للوجودية). (المعرب، نقلاً عن: منير البعلبكي، المورد: قاموس إنجليزي / عربي).
 [٣] - انظر: هومر، شون، زاك لاكان (جاك لاكان)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد علي جعفري ومحمد إبراهيم طاهاني، ص ٥٧، ١٣٩٠ هـ ش.
 [٤] - انظر: فرديناند دو سوسير، ؟، ص ١١٦، ١٩٦٦ م.

حين يؤكد فرديناند دي سوسير على رابطة أجزاء اللغة، ومن هنا فإنها ترتبط ببعضها لتكتسب المفهوم والمعنى. وقد عمد إلى التعريف بالنظام اللغوي الكلي بوصفه منظومة دقيقة ومتكاملة. وهذا الكلام يعني أن المنظومة الأساسية للنظام اللغوي تعمل على خلق معنى لكل مفردة في لغة ما، وكما يصرّح دي سوسير: إن هذه القيم تنطبق على المفاهيم، يكون المراد أنها افتراضية على نحو حصري، ولا يتم تعريفها على نحو إيجابي وبسبب محتواها، وإنما يتم تعريفها بشكل سلبي ومن طريق ارتباطها بسائر الوحدات والأجزاء الأخرى في ذات المنظومة. إن الخصيصة الأدق لها أنها شيء لا يكون عليه الآخر^[١]. وقد عمد فرديناند دو سوسير في موضع آخر إلى إرجاع معيار الاختلاف المفهومي للكلمات إلى الاختلاف الصوتي بينها، ويُقرّ قائلاً: إن المطروح في مورد «الكلمة» ليس هو الصوت وحده فقط، بل وإن الاختلافات الصوتية بدورها هي التي تكون سبباً في التمايز بين الكلمة ونظائرها من الكلمات الأخرى، وذلك لاشتمال هذه الاختلافات على المعاني أيضاً^[٢]. وقد انتقلت هذه الرؤية من علم اللغة واللسانيات إلى العلوم الاجتماعية، الأمر الذي حمل الكثير من المفكرين في هذا الحقل إلى القول بأن المفاهيم ما هي إلا حصيلة الروابط والعلاقات. من ذلك أن أندرو ساير^[٣] يذهب بدوره إلى الاعتقاد بأن المفهوم شيء يحصل من خلال مجموعة من الروابط والعلاقات أو «الأواصر المفهومية» التي تربطه بسائر الكلمات الأخرى. والآن علينا أن نتساءل: ما هي حقيقة المعنى في الأساس؟ وهل يمكن الحديث عن وجود معنى تابع من دون أن يكون هناك معنى مستقل؟ وفي المجموع يجب القول: هناك ما يزيد على تسع نظريات حول ماهية المعنى، وإن بعضها عبارة، عن: الربط، والحكاية المصدقية، والتصورية، والسلوكية، والتطبيقية، والخارجية، والصورة الذهنية، والطبيعة، والتفصيل بين المفاهيم الكلية والمفاهيم الجزئية^[٤]. ومن ذلك - على سبيل المثال - يذهب تشارلز ساندرز بيرس^[٥] إلى الاعتقاد بأن معنى نظرية ما عبارة عن نتائجها العلمية^[٦]. ومن ذلك أن بعض المفكرين - على سبيل المثال - يذهبون إلى القول بأن

[١]- انظر: فرديناند دو سوسير، ؟، ص ١١٦، ١٩٦٦ م.

[٢]- انظر: المصدر أعلاه، ص ١١٧.

[٣]- أندرو ساير (١٩٤٩ - ؟ م): عالم اجتماع بريطاني وأستاذ فخري للنظرية الاجتماعية والاقتصاد السياسي في جامعة لانكستر في المملكة البريطانية المتحدة. يُعرف بمساهماته الكبيرة في المنهجية والنظرية في العلوم الاجتماعية. (المعرب).

[٤]- انظر: أليستون، وليم بي، فلسفه زبان (فلسفة اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أحمد إيران منش وأحمد رضا جليلي، ص ٢٢٦ - ٢٢٧، نشر دفتر

پژوهش و نشر سهروردي، طهران، ١٣٨١ هـ ش.

[٥]- تشارلز ساندرز بيرس (١٨٣٩ - ١٩١٤ م): فيلسوف وعالم منطوق وعالم رياضيات أمريكي. يطلق عليه لقب (أب البراغماتية أو العمالية). (المعرب).

[٦]- انظر: كابلستون، فريدريك، تاريخ فلسفة غرب (تاريخ فلسفة الغرب)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: مجتوي وآخرون، ج ٨، ص ٣٤٤، انتشارات سروش، طهران، ١٣٧٤ هـ ش؛ ماغي، ؟، ص ٤٦٦ - ٤٦٧، ١٣٧٢ هـ ش.

الاستعمال هو الملاك في المعنى، ويصرّح قائلاً: «إن الاستعمال في الواقع هو الذي يعمل على إيجاد الموضوع»^[١]. بيد أن الذي يحظى بالأهمية في البين هو أنه من بين النظريات أعلاه وحدها النظرية الأولى ترى المعنى أمراً ربطياً ونسبياً وإضافياً، وأما سائر النظريات الأخرى تثبت للمعنى نوعاً من الاستقلال، وإن كان استقلالاً منبثقاً عن الاستعمال الخارجي. يرى صدر المتألهين استحالة تحقق الوجود الرابط من دون الوجود المستقل؛ وقد ذكر العلامة الطباطبائي - في ضوء الاستفادة من هذا المطلب - برهاناً دقيقاً على تحقق الوجود الرابط في الواقعة العينية، إذ يقول: هناك قضايا خارجية، بمعنى أنها تنطبق بموضوعاتها ومحمولاتها على الخارج. من ذلك مثلاً عندما نقول «علي قائم» وتكون هذه القضية صادقة، فإن صدقها يكون بمعنى أن علياً موجود في الواقع الخارجي، والشخص القائم، والنسبة بين هذا الشخص وبين القيام أيضاً. وعلى هذا الأساس فإن الاعتقاد بأيّ موجود أو معنى رابط وتابع من دون القول بوجود موجود في الحد الأدنى أو معنى مستقل، سوف يؤديّ إلى التسلسل، والتسلسل محال من الناحية العقلية. وعلى هذا الأساس فإن البنيوية التي تعتبر جميع المعاني أموراً رابطة لا مندوحة لها في الحد الأدنى من القبول بمفهوم مستقل^[٢]. والملفت في البين أن بعض علماء اللغة قد تنبّه إلى أصل هذه النقطة الدقيقة، وهي أنه حيث لا يوجد هناك أيّ طريق للوصول إلى تعريف مطلقة للكثير من المعاني وبيان ثباتها، نضطر إلى اختيار طبيعة محددة وثابتة للغة بوصفها تصوراً سابقاً في الأبحاث والدراسات اللغوية^[٣]. إن المراد بـ «التصور السابق» في هذه العبارة، هو الذي يُصطلح عليه في فلسفة العلم بـ «الفرضية». وبطبيعة الحال فإن العلامة الطباطبائي يرى أن قيام المعنى الحرفي على المعنى الاسمي لا يقتصر على حدود التصديقات فقط، وإنما يشمل حتى التصورات والكلمات المفردة أيضاً.

ج - إنكار اختيار الإنسان؛ عندما يتم تطبيق نظرية البنيوية على موضوع الإنسان، فإنها سوف تؤديّ إلى إنكار اختيار الإنسان؛ إذ أن وجود الأبنية اللامرئية يعمل - بناء على هذه النظرية - على توجيه إرادة الإنسان، ولا يخفى أن إرادة الإنسان بحسب الأصول خاضعة للأبنية. في ضوء الأصول الفلسفية لصدر المتألهين يتمتع الإنسان بالاختيار، وهو يدرك اختياره بالعلم الحضوري. وبطبيعة الحال قد يذهب التصوّر ببعض إلى اعتبار إرادة واختيار الإنسان في عرض الإرادة الإلهية وأنها تقابلها، ولكن لا بدّ من اعتبار إرادة الإنسان في طول الإرادة الإلهية. يضاف إلى ذلك أنه بعد نفي

[١]- انظر: كرايب، يان، نظريه اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ٢٣٢، ١٣٨٩ هـ ش.

[٢]- انظر: العلامة الطباطبائي، السيد محمد حسين، نهاية الحكمة، ص ٢٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٦ هـ.

[٣]- انظر: بلومفيلد، ليونارد، زبان (اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي محمد حق شناس، ص ١٦٢، ١٣٧٩ هـ ش.

الاختيار عن الإنسان سوف تنتفي الأرضية ل طرح الأبحاث المرتبطة بالأفعال وأبعادها المختلفة وتكون عديمة المعنى . صحيح أن أفكارنا قد تعمل على تحديدها، وقد تؤدي بنا أفكارنا وذهنياتنا إلى بيان أمور لا نريد بيانها، أو أن نحجم عن بيان أمور نحن بصدد بيانها، بيد أن هذا كله لا يشكل دليلاً كافياً لأن نعتبر الأشخاص مجرد دمي تتحرك بخيوط يتم التحكم بها من خلف كواليس المسرح^[١]. وعلى كل حال فإن نفي الاختيار عن الإنسان قد أدى بالبنويين إلى عدم إبداء التفاعل بشكل عام مع بعض الموضوعات المتعارفة في علم الاجتماع من قبيل: الوعي الخلاق، والفاعلين، والفعل، والسلوك، والفعل المتقابل^[٢]، ومن هذه الناحية تعرضوا إلى نقد من قبل الوجوديين؛ بمعنى أنه لا يمكن تجاهل الإنسان - الذي قام بصنع الأبنية الثقافية والاجتماعية بنفسه - واعتبار نقطة بداية البحث تأثير هذه الأبنية على حياة الإنسان وتفكيره^[٣].

د - الشمولية الذاتية؛ إن الشمولية الذاتية من جملة اللوازم والتداعيات المترتبة على القول بالنظرية البنوية. توضيح ذلك أننا لو قبلنا بصوابية هذه النظرية، واعتبرناها أساساً لتحليلنا وبياننا للظواهر والنظريات، ينبغي أن نتمكن من تطبيق البنوية بالنسبة إلى ذات هذه النظرية أيضاً. إنه لأجل تحديد وتقييم هذه الأبنية اللامرئية يجب أن نعمل على بحث الأبنية التي شكّلت أرضية لتبلور هذه النظرية. ولكن ما هي العناصر التي يمكن اعتبارها بوصفها أرضية لتبلور هذه النظرية حقاً؟ لقد سعى بعض الكتاب - من خلال الاستناد إلى المعطيات التجريبية - إلى إثبات أن نشاطاتنا الذهنية تنشأ من العوامل الأحيائية. إن الشاهد على هذا الكلام بعض معطيات علم الأحياء؛ إذ أن التصوير المقطعي^[٤] يثبت أننا عندما نعمل على تحريك إصبع واحد من أصابعنا، يُضاء قسمين من المخ؛ أحدهما يعرف بالقشرة الحركية والذي هو في الواقع مرسلًا للخطاب من أجل تنفيذ الترتيبات المناسبة لانقباض عضلة ما لتحريك الإصبع، وأما القسم الآخر - الذي يقع أمامها باسم قشرة «ما قبل الحركة» - فهو يعمل على إعداد الشخص لتحريك إصبعه^[٥]. والآن يمكن لهذا السؤال أن يطرح نفسه: أفليست التحليلات التي يقدمها البنويون بالنسبة إلى اللغة وسائر أبعاد العلم في حد ذاتها

[١]- انظر: كرايب، يان، نظريته الاجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ١٧٠، ١٣٨٩ هـ ش.

[٢]- انظر: ريتزر، جورج، نظريته جامعه شناسي در دوران معاصر (نظرية علم الاجتماع في المرحلة المعاصرة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، ص ٥٥٤، ١٣٨٨ هـ ش.

[٣]- انظر: أحمددي، بابك، ساختار و هرمونتيك (البنية والهرمنوطيقا)، ص ٥١، ١٣٨٠ هـ ش. (مصدر فارسي).

[٤]- التصوير المقطعي أو التصوير الطبقي (tomography): أسلوب تصوير علمي يعتمد على تكوين صورة عن الجسم المدروس بعد إجراء عملية تركيب لصور شرائح مأخوذة تراتبياً واحدة تلو الأخرى بتعريض الجسم إلى الأشعة. يُستخدم التصوير المقطعي في العديد من المجالات العلمية، مثل: علم الأشعة، وعلم الأحياء، وعلم الفيزياء وغيرها. (المعرب).

[٥]- انظر: راماتشانداران، و. س.، شناخت ذهن (معرفة الذهن)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حميد سپهر و روبا زماني، ص ١١٤، ١٣٧٧ هـ ش.

منبثقة عن أبنية وراء الأمور اللغوية؟ أوليس لازم هذا الكلام أن لا تكون الرؤية اللغوية مجدية في تجزئة وتحليل الألفاظ بأيّ وجه من الوجوه؟ نحن نعلم كيف يتم إنتاج أصوات الكلام، وكيف تعمل الأوتار الصوتية واللغوية وسائر الأعضاء الأخرى. ونعلم بشكل عام أن هذه الأعضاء وغيرها تخضع لسيطرة الجهاز العصبي. ولكننا لا نعلم كيف يعمل المنخ على إنتاج التركيبات الخاصة للكلمات^[١]. وعلى هذا الأساس يبدو أن أيّ نوع من تطبيقات النظرية البنيوية يستلزم أن يكون تبلور ذات هذه النظرية بدورها قائماً على بيان بعض الأبنية اللامرئية أيضاً!

هـ - الاختزالية؛ حيث يتم إعطاء الأولوية في النظرية البنيوية إلى الروابط، يمكن الحديث عن الاختزالية بوصفها واحدة من التبعات السلبية لهذه النظرية. في ضوء النظرية البنيوية يتم تلخيص جميع أبعاد موضوع ما في أبنية لامرئية، ويتم اختزال البناء اللامرئي بدوره في نهاية المطاف بعلاقة الدال والمدلول، ويتم اعتبار علاقة الدال والمدلول بدورها علامة قد تقوّمت على أساس الاعتبار والجعل الاجتماعي. إن ذات هذه الاختزالية منبثقة عن النظرية البنيوية التي انتهت لاحقاً عند فريدريك نيتشه^[٢] إلى إنكار الواقعية، إلى الحدّ الذي ذهب معه في الجواب عن هذا السؤال القائل: ما هو الشيء الذي يحظى بالواقعية؟ إلى الادعاء بأن هناك كمّاً هائلاً من الأخطاء في الاستعارات والمجازات والتشبيهات والحقائق، بحيث نسي الإنسان أنها أخطاء إن العملة التي يتم مسح رسمها لا تعود متداولة في الأسواق بوصفها عملة رائجة، بل ستصبح مجرد قطعة معدنية فاقدة للقيمة الشرائية^[٣]. من خلال نظرة دقيقة إلى هذه المسألة، يمكن الادعاء بأن من بين لوازم البنيوية، عدم إمكان تعريف موضوع العلم. لقد أدرك فرديناند دي سوسير في بيان أسلوب البنيوية بوضوح أنه لا توجد في ضوء هذا الأسلوب إمكانية لتعريف موضوع العلم. ومن هنا فقد صرّح بشأن موضوع علم اللغة قائلاً: «في علم اللغة لا يكون هناك عدم تقدم للموضوع على الرأي فحسب، بل يبدو أن الرأي هو الذي يحقق الموضوع أيضاً»^[٤]. توضيح ذلك أننا لو قبلنا بالأسلوب البنيوي والذي على أساسه لا يكون لأيّ مفهوم من تلقائه وخارج النظام والبناء معنى مستقلاً، وتكتسب

[١]- انظر: ميتوز، بي، اتش، زبان شناسي (علم اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حشمت الله صباغي، ص ٥٢ - ٥٣، انتشارات فرهنگ معاصر، طهران، ١٣٨٨ هـ ش.

[٢]- فريدريك فيلهلم نيتشه (١٨٤٤ - ١٩٠٠ م): فيلسوف ألماني وناقد ثقافي وشاعر وملحن ولغوي وباحث في اللاتينية واليونانية. كان لأعماله تأثير عميق على الفلسفة الغربية وتاريخ الفكر الحديث. في السن الرابعة والأربعين عانى من انهيار وفقدان لكامل قواه العقلية. (المعرب).

[٣]- انظر: ساراب، مادن، پسا ساختارگراتي و پسا مدرنيسم (ما بعد البنيوية وما بعد الحدائنة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد رضا تاجيك، ص ٦٩، نشر ني، طهران، ١٣٨٢ هـ ش.

[٤]- انظر: فرديناند دي سوسير، ؟، ص ١٣، ١٩٨٢ م.

جميع المفاهيم معناها في إطار ارتباطها مع سائر المفاهيم الأخرى في بنية واحدة، لا شك في أنه لن يكون هناك أي موضوع مستقل أو منحاز؛ ليتمكن اعتباره موضوعاً لعلم ما، وحمل الأحكام والمحمولات عليه. وبعبارة أخرى: في مثل هذه الحالة يكتسب موضوع كل علم ناحية خلفية؛ بمعنى أنه ينبغي أن تتراكم الآراء والأبحاث حتى نختار ضمن ارتباط المسائل المختلفة ببعضها واحداً من المفاهيم الرابطة، ونعمل على طرحه بوصفه موضوعاً للعلم. والآن لو طبقنا ذات هذا الأسلوب البنوي على العلوم الاجتماعية، لا شك في أن الحديث عن موضوع العلوم الاجتماعية سوف يكون بلا معنى؛ إذ ما دام لم يتم جمع النظريات والآراء والأبحاث وضمها إلى بعضها، ولم تفض إلى نظام مفهومي، فسوف يكون الحديث عن مفهوم مستقل بوصفه موضوعاً عديم المعنى. إن هذا الرأي سوف يؤدي في نهاية المطاف إلى نفي الموضوع بالنسبة إلى علم اللغة واللسانيات أيضاً، كما نشاهد ذلك عند جاك دريدا^[١]. إن الرؤية القائلة بأن اللغة تعمل على إيجاد موضوعاتها الخاصة قد تبلورت في أعمال جاك دريدا على شكل نظرية بشأن المفهوم والمعنى. إن نقطة انطلاق هذه المدرسة هي أن المعنى لا يوجد من خلال الارتباط بشيء من خارج اللغة؛ لا يوجد على الإطلاق شيء بحيث يمكن لنا من خلال الاستفادة منه ضمان ذلك المعنى، ويمنحنا الاطمئنان بأننا قد أدركناه بشكل صحيح. ولمجرد التمثيل، لا يوجد شيء يلعب دور الإله؛ بمعنى أنه لا وجود للمدلول المتعالي^[٢]. في الالتزام بالموضوع من خارج البنوية، يحتفظ دي سوسير في ذهنه بفكرة الموضوع المستقل الخارج عن المنظومة اللغوية. إن نظريته تدور حول الدور المركزي الذي ينسبه فرديناند دي سوسير إلى الذين يستخدمون اللغة (الموضوعات الإنسانية). إن هذه الموضوعات كان لها وجود سابقاً، وهي من خارج المنظومة اللغوية.

٦. النتيجة

إن النتيجة التي نصل إليها في هذه المقالة هي أن النظرية البنوية على الرغم من سعة انتشارها ونفوذها في الحقول المختلفة من العلوم الإنسانية، ولا سيما منها علم الاجتماع، إلا أنها تعاني الكثير من الصعوبات والتعقيدات من الزاوية الفلسفية. إن هذه النظرية من خلال إنكارها للمعاني المستقلة، تعمل على تفسير وبيان جميع المفاهيم والإشارات والدلالات على أساس مفهوم الربط والنسبة. ومن هذه الناحية يكتسب الربط والنسبة أصالة في هذه النظرية. إن تأصيل الحقائق الرابطة

[١]- جاك دريدا (١٩٣٠ - ٢٠٠٤ م): فيلسوف فرنسي من مواليد الجزائر. صاحب نظرية التفكيك، ومن أقطاب ما بعد البنوية. درس عند (ميشال فوكو)، ومن تلامذته (برنار هنري ليفي). وقد تأثر بكل من: مارتن هايدغر، وفريدريك نيتشه، وفرديناند دو سوسير، (المعرب).

[٢]- انظر: كرايب، يان، نظرية اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، ص ٢٣٤ - ٢٣٥، ١٣٨٩ هـ ش.

يستلزم في حدّ ذاته تقليلاً للحقائق المستقلة واختزالها ببعض عوارضها.

وعلاوة على ذلك فإن النظرية البنيوية تفتقر إلى أدوات النقد والتقييم، وتتجاهل الأبعاد التاريخية للظواهر، ولا سيّما منها الظواهر الإنسانية. وأما على أساس فلسفة صدر المتألهين، فأولاً: إن التنظير في العلوم الاجتماعية يبدأ من الاعتراف والإقرار بالمصادر المعرفية المختلفة، من قبيل: الحس، والعقل، والشهود. وثانياً: إن الإنكار التام والكامل للإدراك الحسي، يؤدي إلى إنكار جانب من الواقعية العينية. وثالثاً: يجب أن لا تقع نتيجة المشاهدة في تقابل مع القواعد والقوانين العقلية من قبيل قانون استحالة اجتماع النقيضين؛ إذ أن الحس والمشاهدة في الأصل لا يقدران على إدراك الحقائق الكلية ناهيك عن إدراكها للأحكام المقابلة لها. يُضاف إلى ذلك أن العامل والفاعل والحالات والخصائص المحسوسة - في ضوء فلسفة صدر المتألهين - تلعب على نحو الموجبة الجزئية دوراً في بلورة النظرية والمعرفة الاجتماعية؛ وحيث يتم إحراز علل ودوافع الفاعل المعرفي من طريق الفهم والتفسير، فإن مجرد الاستفادة من أسلوب البيان في هذه الطريقة، لا يمكنه أن يقدم توضيحاً كاملاً للموضوعات الاجتماعية.

كما يمكن على أساس أصول فلسفة صدر المتألهين أن نتحدّث - بالإضافة إلى العلة الفاعلية - عن العلة الغائية لكل ظاهرة إنسانية اختيارية أيضاً. ومن هنا فإن البيان لا يقتصر على دراسة العلة الفاعلية فقط، بل يشمل العلة الغائية أيضاً. وبالنظر إلى أن أيّ تنظير في العلوم الاجتماعية يقوم - من زاوية فلسفة صدر المتألهين - على القوانين العقلية العامة التي تفوق تحولات الزمان والمكان، يمكن الوصول إلى التكهن والتوقع في حالة إحراز الشرائط اللازمة في صدق القوانين العامة والكلية. بيد أننا رأينا أنه قد تمّ في النظرية البنيوية - من خلال إنكار قيمة المشاهدة - نفي إمكان الوصول إلى عالم دراسة النظرية البنيوية، من زاوية الحكمة المتعالية. يُضاف إلى ذلك فإنه في الظواهر التاريخية من خلال إنكار البعد التاريخي لظهور هذه المجموعة من الظواهر، لا يمكن تقديم توضيح كامل عن الأبعاد المختلفة للعلوم الاجتماعية. وكذلك بعد اعتبار الإنسان مجبراً ومقهوراً لبنية الفهم، لا يمكن الحديث عن العلة الغائية.

لائحة المصادر والمراجع

١. أحمددي، بابك، ساختار وهرمنوتيك (البنية والهرمنيوطيقا)، نشر گام نو، طهران، ١٣٨٩ هـ ش.
٢. استيور، دان، فلسفه زبان ديني (فلسفه اللغة الدينية)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أبو الفضل ساجدي، انتشارات مركز مطالعات و تحقيقات اديان و مذاهب، قم، ١٣٨٤ هـ ش.
٣. ألتون، وليم بي، فلسفه زبان (فلسفه اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: أحمد إيران منش وأحمد رضا جليلي، نشر دفتر پژوهش و نشر سهروردي، طهران، ١٣٨١ هـ ش.
٤. بلومفيلد، ليونارد، زبان (اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي محمد حق شناس، مركز نشر دانشگاهي، طهران، ١٣٧٩ هـ ش.
٥. پارسا، حميد، روش شناسي انتقادي حكمت صدرائي (المنهج النقدي لحكمة صدر المتألهين)، نشر كتاب فردا، قم، ١٣٨٩ هـ ش.
٦. ترسك، روبرت لارنس، مباني زبان (أسس اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: علي فاميان، نشر مركز، طهران، ١٣٧٩ هـ ش.
٧. تشالمرز، ألان فرانسيس، جيستي علم (ماهية العلم)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: سعيد زيبا كلام، انتشارات سمت، طهران، ١٣٨١ هـ ش.
٨. خاتمي، محمود، مدخل فلسفه غربي معاصر (مدخل إلى الفلسفه الغربية المعاصرة)، انتشارات علمي، طهران، ١٣٨٦ هـ ش.
٩. راماتشانداران، و. س.، شناخت ذهن (معرفة الذهن)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حميد سپهر و رويما زماني، انتشارات دانشگاه يزد، ١٣٧٧ هـ ش.
١٠. ريتزر، جورج، نظريه جامعه شناسي در دوران معاصر (نظرية علم الاجتماع في المرحلة المعاصرة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محسن ثلاثي، انتشارات علمي، طهران، ١٣٧٧ هـ ش.
١١. ساراب، مادن، پسا ساختارگراي و پسا مدرنيسم (ما بعد البنيوية وما بعد الحدائثة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد رضا تاجيك، نشر ني، طهران، ١٣٨٢ هـ ش.

١٢. العلامة الطباطبائي، السيد محمد حسين، نهاية الحكمة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٦ هـ.
١٣. كابلستون، فريدريك، تاريخ فلسفة غرب (تاريخ فلسفة الغرب)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: مجتبوي وآخرون، انتشارات سروش، طهران، ١٣٧٤ هـ ش.
١٤. كرايب، يان، نظريه اجتماعي مدرن (نظرية المجتمع الحديث)، مؤسسة انتشارات آگه، طهران، ١٣٨٩ هـ ش.
١٥. ميتوز، بي، اتش، زبان شناسي (علم اللغة)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: حشمت الله صباغي، انتشارات فرهنگ معاصر، طهران، ١٣٨٨ هـ ش.
١٦. هومر، شون، ژاك لاكان (جاك لاكان)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: محمد علي جعفري ومحمد إبراهيم طاهائي، انتشارات ققنوس، طهران، ١٣٩٠ هـ ش.
17. Saussure, Ferdinand de, Course in General Linguistics, trans. Wade Baskin (McGraw-Hill Book Company, New York, 1959).
18. Strauss, Leo, Natural Right and History, The University of Chicago Press. 1974.
19. Strauss, Leo, Structural Anthropology, trans. Claire Jacobson and - Brooke Grundfest Schoepf (Basic Books, New York, 1963).
20. Howarth, David, Discourse, The Open University Press, 2000.